الفصل الرابع

الرؤية الوجدانية

المبحث الأول: المواقف الذاتية الخاصة

المبحث الثاني: الارتباط الوجداني بالأمكنة والأشخاص

المبحث الأول

المواقف الذاتية الخاصة

لا يخفى على القارئ الفاحص لأيام طه حسين، أن يدرك أبعاداً نفسية من شخصية كاتبها، يأتي على رأسها الحساسية المرهفة في تكوين هذه الشخصية، نعم.. فقد كان طه حسين حساساً ذا نفس رقيقة، وأستطيع أن أقول مُضْطهدة.

لمست هذا الجانب لديه في أكثر من موقف في أيامه، أثرت فيه تأثيراً عميقاً، وحفرت في وجدانه أخاديد وأحافير، فهذا طابع الكاتب وميسمه في كل أجزائه.

لقد تأثر طه حسين بعلتين مهمتين، أولاهما: علته البصرية وتحسسه منها، حتى كان يقول عنها كما يقول مثله وسلفه الأمثل **أبو العلاء المعري**[1]:

---

(١) أبو العلاء المعري: أحمد بن عبدالله بن سليمان (٣٦٣- ٤٤٩هـ) ولد في معرة النعمان من أعمال دمشق وتوفي بها، شاعر أديب، لغوي، لم يتكسب بشعره، وكان له وقف يقوم بأمره، عاش قنوعاً متعففاً، أُتهم في ملته بسبب بعض أشعاره المسيئة للدين والعقيدة.
من آثاره:
– لزوم ما لا يلزم.
– رسالة الغفران.
انظر:
- سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٣.
– معجم المؤلفين ١/ ٢٩٠.

"العمى عورة"[1].

هكذا كان ينظر إلى عاهته خجِلاً حيياً، الكلمة التي كان كثيراً ما يذكرها.

العلة الثانية: الفقر، أو تواضع إمكاناته المادية.

وهذه العلة زادت من حساسيته العميقة خاصة في أرض الاغتراب بفرنسا، ولكن هل استطاعت هاتان العلتان أن تنالا من شخصية هذا الإنسان الفريد؟ لا أبداً، فالذي يطلع على رحلته الطويلة في بناء شخصيته وعقليته العلمية، منذ أن كان طالباً في الأزهر، ثم في الجامعة المصرية، وكيف التمس بإلحاح عجيب لإقناع أساتذة الجامعة؛ لكي يُلحقوا كفيفاً بالبعثة المتجهة إلى فرنسا.

ثم بعد ذلك مشواره الطويل والشاق في باريس، لتعلم علوم الفلسفة والاجتماع والتاريخ، وإتقان الفرنسية وتعلم اللاتينية.

وهذه المقتطفات لا تعد شيئاً من عقبات مرّ بها هذا الطالب الصبور والعنيد في تحصيل مآربه، مهما بعدت وتعسرت.

لقد كان أكثر ما صوّر طه حسين في أيامه: أغواره ووجدانه حيث زاده عاهته وفقره عمقاً وإصراراً.

---

(١) الأيام، ٣/ ٥٦٣.

- نراه مثلاً وهو طالب في باريس في السوربون، يخشى أشد مايخشى تعرضه للنقد من أساتذته، على نحو ما كان يتعرض له زملاؤه في الدرس من نقد لاذع وسخرية مُرة، إلى أن تعرض لهذا النقد من أستاذ تاريخ الثورة الفرنسية، الذي كلفه مع بعض زملائه عن الكتابة عن الحياة الحزبية في فرنسا بعد سقوط نابليون، فأقبل طه على الدراسة والتنقيب في الكتب بقدر ما استطاع، وقدمه للأستاذ، وجاء يوم النقد، فاستعرض الأستاذ الواجبات المعروضة عليه بسخرية وتندر وتوبيخ وتقريع، حتى إذا ذكر اسم طه حسين، علق بعبارة لم ينسها قط:

"سطحي لا يستحق النقد" (١)، يقول:"وكان لهذه الكلمة وقع لاذع في نفس الفتى أمضّه بقية يومه، وأقضَ مضجعه وأشعره بأنه لم يتهيأ بعد كما ينبغي، ليكون طالباً في السوربون، فألحَّ في درس الفرنسية، وكلّف نفسه في هذا الدرس من الجهد الثقيل والعناء المتصل" (٢).

هذا الموقف الذي لم ينسه الطالب طه حسين، واستحضره كما جرى له، يعكس مدى حساسيته وانطوائه على نفسه بما حوت من شجون وهموم.

---

(١) المصدر السابق، ٣/ ٥٨٣.
(٢) المصدر السابق، ٣/ ٥٨٣.

إن هذا الموقف، ومثله كثير، لم يزد صاحبه إلا عناداً وتصـــميماً على ركوب المراكب الصعبة القياد، حتى لا يصبح بينه وبين المبصرين أي فارق وتمييز، بدلالة رفضه القاطع حضور مؤتمر أقيم في مصر بعد عودته إليها، وكان مؤتمراً خاصاً بالعميان إذ نفر نفوراً شـــديداً عنـــدما طُرح عليه أن يلقي خطبة في هذا المؤتمر[١].

فالشخص العائد من فرنسا الآن غير ذلك الذي ذهب إليها، باعتقاد أن العمى عورة يجب سترها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، عاد إلى وطنه وقد تملكته ثقة بأنه حقق درجة علمية لم يتحقق لنظيرٍ له في وطنه.

*****

والحقيقة أن المواقف الوجدانية التي تهز أعماق كاتبيهـــا كثيـــرة ومميزة وطريفة كذلك، وأعتقد بأن هذه المواقف هي أهم ما يميز السير الذاتية ويجعلها كتابات إنسانية بالدرجة الأولى.

نقرأ مثلاً معاناة الكاتب **محمود الربيعي**[٢] في رحلته إلى لنـــدن، وتعلم اللغة الإنجليزية الذي استغرق منه سنين عدة، حيث كـــان يُقـــدِّم

(١) انظر: المصدر السابق، ٦٥٧/٣.
(٢) محمود الربيعي: محمود بخيت الربيعي (١٩٣٢م-) من أعلام النقد في العالم العربي. عمل في معظم الجامعات المصرية والعالم العربي. ويعمل حالياً أستاذاً للأدب العربي في الجامعة الأمريكية بالقاهرة. له كتابان في السيرة الذاتية:

أوراق الامتحان في بداية عهده بالإنجليزية فارغة بيضاء إلا من اسمه، فالإجابة يجب أن تكون بالإنجليزية، وكان في نفس الوقت يجاهد ويصارع في تعلم الإنجليزية في بيته بواسطة مدرسة تأتي إليه لتعليمه، وتمر الشهور بعد الشهور، فإذا الذي حققه في التعليم لا يؤهله لدخول الامتحان العسير، وهكذا نراه مرة ثانية يُسلم ورقة الامتحان بيضاء ناصعة، وفي المرة التي تليها تغيب عن حضور الامتحان ولم يسلم من العناء، وكان يفصل بين كل امتحان في اللغة، والامتحان الذي يعقبه بضعة شهور، فيستثمر هذه الشهور الطويلة بالبحث والدراسة والاجتهاد والصبر على المشاق، إلى أن استقامت لغته الإنجليزية، واستوى عودها، ما أهله وأمكنه لدخول الامتحان في آخر الأمر، ومن ثم النجاح، يقول:

"ظهرت نتيجة الامتحان مساء الجمعة، ولم أطق الانتظار، فاتصلت تلفونياً بمدرستي، وجاءني صوتها مرحاً واثقاً، يُهنئني بالنجاح، لم يكن ما أحسستُ به فرحة، بل كان دهشة كاملة، وقد أدركت مدرستي ذلك،

= - في الخمسين عرفت طريقي.
- بعد الخمسين.
من مؤلفاته: -
– نصوص من النقد الأدبي.
– قراءة الرواية.
– قراءة الشعر.
انظر: منتدى الخبر الأسبوعي.

فقالت مداعبة: ينبغي أن تكون أول من يصدق ذلك، وإلا فكرت الكلية في سحب هذا النجاح" [١].

وتتشابه معاناة الربيعي في أثناء تعلمه الإنجليزية، بمعاناة سابقه طه حسين في تعلم الفرنسية، والقاسم المشترك بينهما هو إصرارهما في تعلم اللغة، مهما كانت الصعاب والعقبات.

*****

ومن المشاهد التي أثرت في وجدان الكاتب عبد الرحمن بدوي حضوره ومشاهدته لاحتفال عيد الميلاد في روما، الذي حضره سنة ١٩٦٨م، فأشار إلى أن الاحتفال كان فخماً، والحشود في داخل الكنيسة وخارجها لا يبلغون الحصر.

والمراسم تتسم بالأبهة وتعدد الألوان، حيث الكرادلة بثيابهم الزاهية اللامعة، والأساقفة بملابسهم المتعددة الألوان والأزياء[٢].

وأخيراً دخل البابا بولس السادس محمولاً على محفة واسعة، تحملها ثلة من شباب روما، ومن فصوص الخواتم التي حلّى بها أصابعه، كانت إشعاعات متعددة الألوان، تنطلق ذات اليمين وذات اليسار، في ما يشبه البروق في صحن الكنيسة، وعلى رؤوس

(١) في الخمسين عرفت طريقي، محمود الربيعي، ١٠١.
(٢) انظر: سيرة حياتي ٢٠٢/٢.

الحاضرين، وراح يتطلع البابا يمنة ويسرة في زهو وخيلاء شديدين. وأخذ الكاتب يتابع المشهد ويحدث نفسه منتقداً ما يراه ويتساءل في داخله:

"أين مشهد هذا البابا المزين بأفخر الجواهر، المتدثر بأنفس الثياب، المتربع على عرش يحمله ثلة من أجمل وأنضر شباب روما، من مشهد الطفل المسيح الراقد في مذود البقر[١]، مقمط في خرق بالية، وما هذا الشموخ والكبرياء والتعالي في مظهر ملامح البابا؟

ألم يسمع قول القديس أوغسطين: الدين المسيحي قوامه كله هو التواضع، وما لهذا الإسراف في الترف والتحلي بأفخر الجواهر التي يزيد ثمنها عن مائة مليون دولار[٢].

ألم يسمع قول المسيح: لا تكدسوا كنوزاً على الأرض، بل كدسوا كنوزاً في السماء؟

ولماذا يمتطي محفة فاخرة، بينما كان المسيح قصارى أمره أن يركب على حمار؟" [٣].

---

(١) مذود: وجمعها مذاود (بكسر الميم وفتح الواو) وهي معالف الدواب. وفي اللسان: معلف الدابة: مذوده.
انظر:
لسان العرب. ابن منظور(ت٧١١ه). دار صادر ، بيروت ١٣٨٨ه. ١٦٨/٣.
(٢) سيرة حياتي ، ٢٠٢/٢ ، ٢٠٣.
(٣)المصدر السابق، ٢٠٢/٢ ، ٢٠٣.

وأوضح بدوي أن هذه المناظر أثارت في نفسه مشـــاعر الازدراء والنفور.

وبعد الاحتفال التقى بعض الرهبان، وعبر لهم عن شدة امتعاضه لما رآه منافياً لكل ما دعا إليه المسيح، فأجابوه فـــي خجـــل وقـــح: "إن المقصود بهذه المحفة هو تمكين الناس من مشاهدة البابا" [1]. ولكنه لـــم يقتنع بهذا مشيراً أن في وسع الناس – مهما كثروا– مشاهدة البابا وهو يمشي على قدميه في وسط الكنيسة، وقد أشار بدوي – وأوافقه الـــرأي تماماً– إلى إن هذه العادات مأخوذة من أباطرة الرومان وقياصرة روما، وليست من روح الدين المسيحي الحقيقي في شيء.

ويعكس هذا المثال أيضاً موقفاً حضارياً وفكرياً للدكتور بـــدوي، فهو يعارض البذخ والإسراف في المظاهر، لا سيما عند من يمثل الزهد والترفع عن المظاهر الدنيوية، كشخصية البابا في الدين المسيحي.

*****

من اللحظات المميزة التي عاشتها الكاتبة هالة سرحان، ما شاهدته في إحدى المسرحيات، مسرحية اسمها (أطفال أقل شأناً)، وتتناول قصة فتاة صماء بكماء، وأستاذها الذي عطف عليها، وعلمها وساعدها علـــى مواجهة عجزها، وقهر الواقع الأليم، وهي مســـرحية تراجيديـــة تمـــس

(١)المصدر السابق، ٢٠٢/٢ + ٢٠٣.

شغاف القلب من فرط إنسانية الموضوع، وخاصة أن البطلة كانت صماء بكماء في الواقع[١].

وعندما أُسدل الستار وقف جمهور الحاضرين يصفق تصفيقاً حاراً، والبطلة الصماء التي لا تستطيع أن تسمع هدير التصفيق، تحيي الجمهور، وقد ارتمت على خشية المسرح تمتص تردد ذبذبات صوت التصفيق الذي لا تسمعه، وكانت هذه الوسيلة التي حاول بها الأستاذ توصيل الإحساس لطالبته الصماء في المسرحية والجمهور يصفق في جنون، ودموع البطلة تنهال على وجهها أيضاً، وعلى وجوه من حولها من فرط التأثر بهذا المشهد الإنساني المهيب [٢].

*****

ومن جملة المواقف التي ذكرها **حسن محمد جوهر**[٣] في رحلته خلال إقامته في الدنمارك، موقف وجداني صغير جعله ينتبه لتصرفاته العفوية غير المقصودة، فعندما حلّ ضيفاً على إحدى الأسر الدنماركية

---

(١)انظر: أمريكا خبط لزق، ١٦٥.
(٢) انظر: المصدر السابق، ١٦٥.
(٣) حسن محمد جوهر: رحالة مصري ومن رواد الحركة الكشفية المصرية ، جاب مختلف البلدان ،وكتب مؤلفات كثيرة تحكي قصص أسفاره ومشاهداته ، إلى جانب هذا سبق له العمل في مجال التربية والتعليم.
من مؤلفاته:
- الجزائر.
- الهند.
- اليابان.
انظر مقدمة كتابه: رحلة الصيف الأولى إلى أوروبا.

حدث أن تأبطت ذراعه إحدى فتيات الأسرة، وهم يعبرون الشارع، فما كان من الكاتب إلا انقبض عفوياً وسحب ذراعه بسرعة، مـــا أدى إلـــى جرح الفتاة وغضبها وانسحابها من هذه الرفقة، إلا أنه برّر مـــا حـــدث لأقارب الفتاة بأنها المرة الأولى التي يلامس فيها فتاة لا تمت له بصـــلة قرابة، فقبلوا عذره[1]. ومثل هذه المواقف مع أثرها في وجدان الكاتـــب، فإنها مواقف ثقافية أيضاً، تعكس جانباً من فكر الكاتب وعقيدتـــه، وردة فعله لما يراه من حوله لأمور قد لا تطابق بالضرورة معتقداته.

*****

ومن المواقف الوجدانية الطريفة كذلك، والمتعلقة بالأكـــل، مـــا أورده الكاتب أحمد عطية الله، وما حدث له ذات مرة في أحـــد مطـــاعم مدينة برلين بألمانيا، حيث كان يتناول طبقاً من السمك، و في أثناء ذلك أحسّ بشيء لاصق بين أسنانه، اتضح له فيها بعد أنها شوكة من شوكات السمكة التي كان يلتهمها، فنكأها بلسانه، فوثبت فوراً إلى حلقه، فحـــاول جذبها بكل طريقة فلم يفلح، وعندئذٍ ذهب إلى مغسلة المطعـــم، وهنـــاك رأى ملاحظ المغسلة، وهو رجل ممتد الطول ينظر بعينين صغيرتين من وراء نظارة على أنفه.. وقد ذهب الكاتب الملهوف إلى المرآة ليســـتطلع

(١) انظر: رحلة الصيف الأولى إلى أوروبا. حسن محمد جوهر ، دار الشعب ، القاهرة (د.ت). ٥٣.

حلقه، ويتمكن من إخراج الشوكة، فحاول جذبها بلا جـــدوى، وملاحـــظ المغسلة يراه بلا مبالاة، دون أن يغيثه، فلم يجد صاحبنا بداً من أن يسأله عن ملقط، فهز الرجل رأسه سلباً، ثم سأله عن القطن، فاعتذر الرجـــل أيضاً، فضاق صدر صاحبنا بشكواه، فراح يؤنب ملاحظ المغسلة علـــى تخاذله وعدم تعاونه، ولعل كلامه قد أصاب من الرجل جواباً؛ لأنه طلب من الملهوف الانتظار، وغاب برهة، عاد بعدها برفقة شاب يلبس معطفاً أبيض كأهل الطب، ثم ذهب هذا الشاب مع الكاتب إلى مكـــان مجـــاور للمطعم، يوجد به طبيب، فما أن جلس أمام الطبيب وفتح فمه، حتى كانت تلك الشوكة الدقيقة قد وثبت إلى شفتيه، فوقف على قدميه وأخذ يشـــكر مهارة الطبيب(١).

ويعكس هذا المثال قدرة الكاتب على رسم الشخصية، وإبراز ملامحها في سخرية، واعتراض، وكأنه رسام الكاريكاتير، حيث يصف ملاحظ المغسلة بأنه رجل ممتد الطول، ينظر بعينين صغيرتين من وراء نظارة على أنفه، وهذه الملامح تدعو إلى السخرية، وتجسد رفض الكاتب لتصرف هذه الشخصية التي رفض صاحبها، وبلا مبالاة، مساعدة الكاتب.

(١) انظر: يوم في أوروبا: ٤٦+٤٩.

المبحث الثاني

الارتباط الوجداني بالأمكنة والأشخاص

إن تأقلم الإنسان وتكيفه مع مجتمعه وبيئته في غاية الأهمية لعملية التأثر والتأثير والأخذ والعطاء، وينشأ عن هذا مفهوم الارتباط الوجداني للإنسان بمن حوله من الأماكن والأشخاص، وقد لاحظت على عموم السير المدروسة ظاهرة التجمع والترابط بين المغتربين، ليس فقط على مستوى المصريين أو العرب، بل بين شعوب البلدان النامية أو المغلوبة ، سمِّها ما شئت، فحيثما يكون هؤلاء، تكون الصحبة والرفقة الممتعة، والارتباط الوثيق بما يعكسه من ضحكات وبسمات ودموع وتأملات، وبما أن المكان المقصود هنا (الوطن) المفتقد لدى الجميع، وهو الغائب الحاضر دائماً في كل السير.

فالتجمعات العربية في سير المرتحلين تعكس حساً جماعياً للحنين للأوطان العربية، حيث الازدحام والضوضاء، ورائحة التوابل الشرقية.

ونقرأ في مواضع عديدة من سيرة محمد عناني (واحات الغربة) مدى عمق مكانة موطنه (مصر)، حتى لكأنه حمل وطنه إلى إنجلترا، وعاش في حدود هذا الوطن وأرجائه.

وسأكتفي بشاهدين من سيرته، فقد أحضر معه إلى بريطانيا آلة العود، ليعزف عليها في خلواته ما يذكره بالأحباب من أهله ورفاقه ووطنه، يقول:

"وما أن علم الإخوان العرب بأن لدي آلة العود الشرقية، حتى قرروا قضاء سهرة موسيقية، وكان اللحن الذي طلبوه لأغنية مصرية وهي (ودّع هواك وأنساه وأنساني/ عمر اللي فات ما حيرجع تاني) حتى وجدت الدموع تسيل من عيونهم، فكان معظمهم يغالب النهنهات، وكان الموجودون خليطاً من جميع البلدان العربية، وكلهم يبكي جرحه، حتى حلّ الهزيع الثاني، فانفضّ السامر، وأدركتُ أن العربي يحمل الوطن في قلبه إلى الأبد".(١)

فهذه صورة تحمل الدفء والأصالة، حيث كثيراً ما يتجسد الدفء بمفهومه المعنوي.

هل هي اللغة المميزة؟ أم اللحن الذي يشدّنا للأعماق المتوقدة؟ أم أنه الشخص المؤدي للأغنية؟ ربما كلهم أو بعضهم مع أسباب نفسية أخرى، تتجلى في جذب المستمع عبر التداعيات الذهنية إلى عوالم البدايات الأولى للنشأة الغضة والطرية، وجاءت الأغنية لتحرك مفاتيح

(١) واحات الغربة ٢ /٨٤

هذه المشاعر الكامنة، فانهمرت الدموع، وانبعث الوهج والدفء لمعانيها الموحية.

*****

- وتُعد المناسبات الدينية مثل حلول شهر رمضان المبارك فرصة لتجمع الوافدين العرب إلى لندن، وقد صوّر عناني في واحاته هذه المناسبة:

"وعندما انتصف شهر ديسمبر (١٩٦٥م) حلَّ شهر رمضان المبارك، وبدأنا الصيام، وما كان أيسره في لندن، فنحن نتناول السحور في الخامسة صباحاً – الفجر يؤذن له في السادسة– ثم نصلي الفجر ونتجه إلى كلياتنا في السابعة، ونعود في الثالثة، حيث نقوم بإعداد طعام الإفطار معاً، ونفطر في الرابعة تقريباً كان قصر النهار فريداً، وبرودة الجو تمنع العطش أو الإحساس به، وكانت الصحبة رائعة، خصوصاً ونحن نفطر جميعاً معاً... وعندما حل عيد الفطر شهد بيت الطلاب ما يشبه العرس، فاجتمع جميع العرب، ورقص السوريون (الدبكة)، وغنى السودانيون أغاني ذات سلم موسيقي خماسي، واجتمع الطلاب من شتى الجنسيات؛ لتأمل هؤلاء العرب الذين اختلفت ألوانهم وجمعهم تراث واحد "[١].

(١) المصدر السابق ٣٨/٢ ، ٣٩.

وإذا كان شهر رمضان فرصة لتجمع الأهل والمعارف، وتقوية أواصر الرحمة والمودة بين الناس، فالأجدى أن يكون كذلك وأكثر في أرض الاغتراب حيث يعمّ الصمت والمشاهدة والجهد الدؤوب لتحصيل الأهداف المرجوة لكل مغترب.

ومثلما شعّ الحنين في آثار وسير المرتحلين لهذا المكان، وهو الوطن، وعبقت به أنفاسهم، جاء المكان الحاضر- أرض الاغتراب- في صورة مقابلة تعكس مواقفهم ونظرتهم إليه.

- إلا أن اللافت للانتباه والطريف في نفس الوقت أن أغلب المرتحلين- إن لم يكن كلهم - تقاسموا حِسّاً وجدانياً فائضاً بالانقباض والتوجس تجاه بلدٍ معين دون سواه، وهو الولايات المتحدة الأمريكية. ونستطيع بسهولة تلمّس هذا القاسم المشترك في تلك السير، فالمجتمعات الأوروبية تمتاز بالدفء والتأمل الحيّ مقارنة بأمريكا. فعلى سبيل المثال يستطيع الزائر لأغلب البلدان الأوروبية كألمانيا وإيطاليا والنمسا وسويسرا وهولندا أن يستمتع بالجلوس في مقاهيها المنتشرة في كل شارع وزاوية، ومشاهدة ما حوله، بل والاستغراق في المشاهدة والتأمل والاسترخاء، دون أن يطلب مشروباً أو مأكولاً... يستطيع أن يقرأ جريدته أو كتابه، أو يتحدث مع آخرين مثله أحاديث

تطول وتقصر، وهذا ما لا يوجد في أمريكا. فإن تجلس في مقهى يعني أن تدفع مالاً لقاء جلوسك، ولابد من دفع المال، ولابد أيضاً من طلب الشراب أو الطعام والمغادرة فور الانتهاء.

إن هذا المثال – برغم جزئيته ومحدوديته– يطلعنا على فارق حيوي ونابض بين الواقع الأوروبي والواقع الأمريكي.

فالواقع الأمريكي مزعج ومتعب وجشع، بينما الواقع الأوروبي هادئ ومتأمل وإنساني مقارنة بنظيره الأمريكي.

تقول **أماني فريد**[1] في كتابها (مصرية في أمريكا): "أوحشتني مصر منذ اللحظة الأولى التي وضعت فيها قدمي على عتبة واشنطن العاصمة الأمريكية، لقد سافرت إلى أوروبا كثيراً منذ عام ١٩٤٩م حتى أوائل العام الماضي، وأنا أسافر بين اليونان وإيطاليا وفرنسا ووسط أوربا وشرقها، فلم أشعر بالغربة حتى في ألمانيا أقرب دول أوربا مضاهاة بأمريكا، وإن لم تكن على نفس المستوى، ولكن أمريكا عالم

---

(١) أماني فريد (١٩٢٢-٢٠٠٥) : صحفية مصرية ورائدة من رائدات التنوير في العصر الحديث. أتمت علومها من الدراسة الجامعية، ثم عملت أستاذة بكلية البنات في الإسكندرية، لتستقيل بعد ذلك متفرغة للصحافة.
اشتهرت بإقامة صالون أدبي رفيع في منزلها، استضافت فيه مشاهير عصرها في الصحافة والأدب والسياسة.
طالبت بحقوق المرأة السياسية ولها مؤلفات كثيرة وبعض دواوين الشعر.
انظر ترجمتها في كتابها: مصرية في أمريكا، أماني فريد. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٧م.

رهيب غريب علي، تشعر فيه من الوهلة الأولى بقــوة المــال والعلــم والتقدم، فكل شيء معمول له حساب، الخطوة التي تصل فيهــا، والتــي تمرق في أنحائها بسيارات الأجرة الفخمة، كل شيء يسير بدقة عجيبة قد تجعل واحدة مصرية مثلي تضيق بكل ذلك، إنه الجمود بعينه، في رأيي جمود يثيرني، فأنا قد تعودت على جلبة القاهرة وعلى الألفة والونس بين أهلها"(١).

وكلام أماني هنا يتشابه مع كلام غيرها ممن اعتادوا على المحيط الأوروبي وألفوه، ثم ارتحلوا إلى أميركا فاستنكروه.

وأجدني ألتمس العذر لهم، فشتان ما بين المحيطين، وربما تكــون أوروبا بحجم ولاية أو ولايتين من الولايات المتحدة.

والدكتور عبد الرحمن بدوي- برغم حياته الحافلة بالعطاء العلمي الغزير ومؤلفاته المنتشرة في أكبر وأعرق الجامعات بأوربا وأمريكا- لم يحب الولايات المتحدة، ولم يزرهــا إلا مــرة واحــدة لإلقــاء بعــض المحاضرات. لقد شعر بالنفور والانقباض سريعاً من المجتمع الأمريكي.

يقول معلقاً ومنتقداً حال المكتبات في الولايات المتحدة: "وقضــيت نهارات الأيام الخمسة الباقية لي في نيويورك بعد انتهاء المــؤتمر فــي زيارة المتاحف والمكتبة المركزية وقصر الأمم. ومن الأمور الغريبــة

(١) مصرية في أمريكا، ١٦.

التي تبينتُها في نيويورك أن مكتبات بيع الكتب فيها، سواء تلك التي بجوار جامعة كولومبيا، وتلك الموجودة في شوارع المدينة، لا تحتوي إلا على قدر ضئيل جداً من الكتب، وهذا القدر هو من الكتب ذات التداول العام، لا الكتب العلمية أو الدراسات التاريخية والإنسانية بعامة. فلما سألت أصحاب هذه المكتبات كيف أحصل على بعض الكتب العلمية المطبوعة في الولايات المتحدة أخبروني أن ذلك يتم بطريقتين اثنتين: إما بأن أطلب من هذه المكتبات فتبعث إلى الناشرين في طلبها، على أن أودع الثمن عندها مقدماً، وإما أن أتصل أنا بالناشرين مباشرة! هبوا أن الكتاب جديد لم أطلع عليه من قبل، فكيف أعرف قيمته، وهل أجد فيه ما أحتاج إليه – فكيف أطلبه منكم وأدفع الثمن مقدماً؟.

فأين هذا إذن من المكتبات في أوروبا العامرة بكل جديد وقديم لا يزال للبيع، والذي يمسكه المرء بيده ويتصفح فهارسه، وربما قرأ معظم المقدمة وهو واقف في المكتبة، بحيث إذا اشترى الكتاب اشتراه عن بيّنة، ولم يضع ماله في شرائه هدراً، وهو لا يعلم من أمره شيئاً! إن هذا الوضع الشاذ العجيب لم أجده حتى في إنجلترا نفسها، إذ المكتبات في إنجلترا تحتوي على رصيد ضخم من الكتب المعروضة أمامك، تستطيع أن تطلع على ما تشاء منه، فإن رأيته مفيداً لك اقتنيته بالشراء وأنت مطمئن إلى أن الثمن الذي دفعته لم يضع سدى. ومن هذه الناحية أيضاً، وهي عندي في غاية الأهمية، ازددت نفوراً من البلد الشاذ

العجيب، أعني الولايات المتحدة الأمريكية. فوداعاً إذن وإلى غير عودة أيُّها البلد الذي لم يُخلق لي ولم أُخلَق له!" [1].

- ويعكس هذا الكلام فرقاً جوهرياً بين المشهد الأدبي الأوروبي وبين نظيره الأمريكي، وهو ما أسميه الدفء، وبعبارة أخرى الحرص على الحسّ الإنساني.

أنا لا أستطيع تخيل هِبات الولايات المتحدة وخيراتها دون أن يسيطر شعور الضوضاء والإزعاج التكنولوجي الطاغي على كل شيء، حتى على وتيرة الحياة الأدبية، وهذه ليست فلسفة بقدر ما هي حقيقة وواقع مُعاش وممتزج بالذهول والانبهار بالمنجز العلمي الشائك، كأخطبوط بأذرع غير متناهية، تتمدد في جنبات المجتمع الأمريكي، لتعكس اللهفة واللهاث المتسابق لتحصيل خيرات هذه الحضارة وفقدان نعمة الألفة الإنسانية عبر إشارات بسيطة في تجربة بدوي. فالرجل ألف وتعود طوال عمره على تلمَس الكتب وتصفحها قبل شرائه لها، وعلى مطالعتها في رفوف المكتبات، بل وقراءة مقدماتها وفهارسها أحياناً، الأمر الذي لا يوفره الواقع الأدبي على الطريقة الأمريكية، فلا تأتي معلومة واحدة بدون استدعاء المال لها.

---

(١) سيرة حياتي، ٢٣٧/٢.

ومخطئ من يظن أن البخل والأنانية يسيطران على الدكتور بدوي، ليستفيد من مزايا تصفح ومطالعة الكتب مجاناً.

فهذه الصورة المتداولة والمتعارف عليها لشراء الكتب، ومن حق الإنسان أن يلمّ بنبذة جيدة عن الكتاب الذي سيشتريه بدلاً من دفع ماله لشراء كتاب لا يعرف عنه سوى عنوانه.

إن بدعة العولمة الجشعة لإنشاء المفاهيم الجديدة في السلوك الإنساني ترتكز على مبدأ الاستهلاك والاستهلاك ثم الاستهلاك.

*****

- تحدثت فيما سبق عن أمثلة المكان بمفهومه العام سواء كان مكاناً غائباً جغرافياً كالوطن البعيد، أو حاضراً كأرض الاغتراب، بكل ما تحمل الكلمة من معانٍ للغيب والتطلع والمغامرة كدلالاتٍ ثقافية راسخة لمن سلك درب الارتحال للبعيد، مهما كانت مآربه وراء هذا الرحيل، وهناك أماكن جزئية وخاصة، كانت ولا تزال مهوى أفئدة الكثير، ومربعاً من مرابع ذكرياتهم الغالية.. شعرت بهذا وأنا أقرأ عن حديقة في باريس تحدث عنها كل من زارها من الأدباء بشوقٍ وحب وحنين. إنه ليس المكان بتضاريسه الثابتة من يجذب الآخرين إليه، وإنما المشاهد الإنسانية الشائقة لذلك المكان: **حديقة**

(اللوكسمبور) حديقة أبدع في وصفها الأدباء أيما إبداع، فهي صورة متجلية للجمال المتدفق كشلالٍ من الأحاسيس الهادرة بالعاطفة المشبوبة، والطفولة الساكنة في أعماق كل إنسان أو كعقد جمانٍ انفرطت لآلئه؛ لتشعَ كل لؤلؤة بزخم الذكريات والمشاعر الجارفة.

وحالما تُذكر حديقة اللوكسمبور يذكر الحب والشوق والغرام، بل إن زكي مبارك يقول إن هذه الحديقة معهد من معاهد الحب، "ولعلها لأجل ذلك تغلق أبوابها دائماً عند الغروب، حتى لا يتمتع أحد بخلواتها في أمسية الصيف والربيع، ولكن هل معنى هذا أنها تحمل شارة الرفث والفسوق؟ لا، فكل ما يجري فيها يتقبله الناس على العين والرأس. إن أهل باريس لا يرون في الحب ما نراه: هو عندهم عادة من شرائع الحياة"(١).

وقد عاش الدكتور عبد الرحمن بدوي أحداثاً عاطفية حقيقية في ربوع هذه الحديقة وعلى مقاعدها، يقول:-

"وكم قضيت ساعات في هذا الموضع مع فتيات من السويد، أو النرويج، أو النمسا، أو هولندا، نتبادل الأحاديث العذبة الرقيقة! لقد كنت آنذاك شاباً أدور حوالي الثلاثين من العمر، وللشباب سحره الذي لا

(١) ذكريات باريس، ١٠٠.

يعوض عنه شيء، فواحسرتاه اليوم على نفسي وأنا أرتاد هذا الموضع الآن دون صاحبة ولا رفيقة!" [١].

ويُشعرنا الكلام السابق للكاتبين أن هذه الحديقة ملجأ ومتنفس لأحاديث الحب والشوق، وملتقى آمن للمحبين، ولكن الحديقة تمثّل في الواقع مكانة وجدانية لزائرها أعمق وأشمل من ذلك، لمن يقرأ عنها أكثر وأكثر.

ومن المشاهدات المؤثرة الأثيرة لديّ شخصياً لهذه الحديقة، منظر الأطفال المتحلقين حول بركة الماء بنافورتها الرائعة، ليرتعوا فيها بتسيير مراكبهم الورقية على صفحات الماء، ومشاهدة عبورها "في فرح وشوق لا يفهمها غير الصبية الناشئين"[٢].

فليس ذلك الماء الذي يجري في بركة لكسمبور، بل ذوب ابتسامات ودموع على حد قول مصطفى عبد الرازق الذي تعلق بشدة بهذه الحديقة ومشاهدها المؤثرة، ما بين رسام معها معتكف على لوحته، وعاشق هائم في سماواته، أو مفكر مستغرق في تفكيره، أو شاعر يستنزل الوحي والإلهام وشتى ألوان الوجدان العابقة بالسحر والحياة[٣].

*****

(١) سيرة حياتي، ١٨٧/١.
(٢) ذكريات باريس، ١٠١.
(٣) انظر: مذكرات مسافر، ٣٤.

- ولما كان للتعلق بالأماكن ما يبرر أهميته، بما يمثله من شـــجون وذكريات عابقة في سماء الوجدان والذاكرة، فإن هنالك تعلقاً آخر يفوقه في العمق والأهمية، وهو التعلق بالأشخاص الذين تعـــايش معهم الكاتب، وشاطروه لحظات سروره وهنائه وبؤسه وشقائه.

وخير ما يعكس هذه المعاني الحميمة أدب الرسائل؛ لما لها مـــن مكانة وخصوصية لدى الطرفين على حدٍ سواء.

فرسائل توفيق الحكيم إلى صديقه الفرنسي أندريه تُشعر القـــارئ بمدى متانة العلاقة الوجدانية التي ربطت بين الصديقين.. ومـــن هـــذه الرسائل نعرف أن الصديقين تشاطرا ذكريات أثرت فـــي كـــل منهمـــا، واحتفظا بها، حتى إن الكاتب عندما زار صديقه وعائلته بعد ذلك بسنين وأخرج إليه الرسائل التي أرسلها الحكيم إليـــه، أراد اســـتردادها إلا أن أندريه رفض وأصر على رفضه؛ لأهمية هذه الرسائل الأدبية لديه، حتى حسمت زوجة أندريه الإشكال، بأن يأخذ الحكيم الرسائل علـــى ســـبيل الإعارة فترة من الزمان، ويعيدها فيما بعد، وهذا ما حدث بالفعل.

ولغة الرسائل فرنسية، إلا أن الحكيم عندما أخذها ترجمهـــا إلـــى العربية، وأصدرها مجموعة في كتاب أسماه **زهرة العمر**؛ لمـــا يمثّلـــه

محتوى الرسائل للفترة التي صاغها الحكيم، "وحملتُ رسائلي برفق وحرص وحنان، كأني أحمل الرماد المتخلف من زهرة العمر الذابلة"[1].

ويعكس مجموع الرسائل الحالة النفسية لصاحبها حال كتابتها، وكأن أندريه الملاذ والملجأ ليهرع إليه الحكيم في حالات قنوطه من واقع الفن والأدب في مصر عندما رجع إليها، فلا أحد قادر على تفهم أوجاع الحكيم ووحدته إلا أندريه.

وفي بعض رسائله يصف الحكيم خيبة أهله به عندما عاد بعد سنوات من الاغتراب للتحصيل العلمي، ليعود بدون شهادة الدكتوراه.

وفي رسائل أخرى يشكو قلة ذات اليد، أو يشكر صديقه على مساعدته مادياً في بعض أزماته.

وتارةً يقصّ عليه بعض المغامرات العاطفية التي عاشها في باريس، ممن تعلق بهن من إيما إلى ساشا وغيرهما.

وفي رسائل أخرى يصف بعض مهام عمله القضائي كوكيل للنيابة في مدينة طنطا أو في مدينة دسوق، واعتماد أهل البلدة عليه في كل شيء، يقول فيها: "إني أكتب إليك الآن من مدينة صغيرة على النيل تدعى دسوق، وهي مع ذلك من أهم مراكز القطر، لقد أسندوا إلي أعمال

(١) زهرة العمر، ٦.

نيابتها، فوجدت نفسي أمام عمل هالني من الكثرة والخطورة... لقد تبين لي بعد أسابيع قليلة أني أنا الرئيس المتصرف في هذه المدينة كلها، فالبوليس والإدارة والصحة والهندسة والري والزراعة، وكل فروع الحكومة المختلفة، تصب مشاكلها بين يدي. حتى فيما لا يقع تحت طائلة القانون، وما يُكتفى فيه بالنصح والإرشاد والمصالحة والتوفيق، كل ذلك يحتاج إلى رأيي، ولكلمتي فيه المقام الأول... إني أؤدي واجبي دون تذمر، وأنهض بأعباء عملي القضائي بأمانة وهمة واستقامة، وألحظ أثرها الحسن في مكاتبات الرؤساء الرسمية، إنهم يثقون في تصرفاتي ثقة تملؤني فخراً. هل كنت يا أندريه تتوقع نجاحي كوكيل نيابة؟.. ولا أنا.. ما كنت أتوقع لنفسي ذلك"[1].

وتوفيق الحكيم كما نعرف علم من أعلام الأدب الحديث في القصة والمسرحية والرواية والمقالة.. وقد تُرجمت أغلب أعماله إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية والروسية، ولكنها عقدة "لقمة العيش"، والتي يسميها عقدة العقد، هي التي حبسته في إطار رجل القضاء والتحقيق.

والواقع أن كثيراً من المؤلفين من أدباء وشعراء ابتعد مجال وظائفهم الرسمية عما عُرفوا به بين الناس كأدباء ومفكرين وشعراء، وهذا دليل ساطع على أن أعباء المعيشة وقيود الوظيفة لا تطفئ جذوة الفكر والفن والأدب.

([1]) المصدر السابق، ١٥٤ ، ١٥٥.

*****

وقد أثار انتباهي حديث الكاتب محمود الربيعي عن أستاذه روبرت سارجنت، ويبدو لنا هذا الأستاذ من خلال ما أورده الربيعي أستاذاً من طراز رفيع، فهو حازم، جاد وحنون، يُقدر قيمة المثابرة والاجتهاد، ولا يستخفّ بالقدرات المتواضعة لطلابه العرب الذين لا يحسنون الإنجليزية، فهو يصر على تعلمهم اللغة الجديدة عليهم سواء على الورق، أوفي أثناء الحوار معهم، بالرغم من قدرته على التكلم بالعربية، وقد استغرق الربيعي في تعلم اللغة الإنجليزية أربع سنوات، قبل أن يبدأ في تحضير الرسالة العلمية، ومع ذلك كان ذلك الأستاذ الصبور يؤمل ويتأمل في هذا الطالب المجتهد. وقد كان الأستاذ سارجنت أحد أعضاء اللجنة العلمية الخاصة بمناقشة الطالب الربيعي رسالة الدكتوراه، ويبدو أن الطالب الربيعي- وفي أكثر من موضع من سيرته- قد تعلق بشخصية الأستاذ سارجنت المقدّرة للعلم والمتعلمين(١).

ويبدو أن إعجاب الربيعي بأستاذه، مرده الشخصية الشرقية الدافئة للربيعي، وتقديره أهل العلم والرصانة، والإخلاص للعلم ومهنة التعليم. فالذي يتضح بعد ذلك أن التزام الأستاذ الإنجليزي الصرامة اللطيفة والرفق تجاه من هم في وضع الربيعي، بسبب تواضع مستوى لغتهم

(١)انظر: حديثه عن الأستاذ روبرت سارجنت في كتابه: في الخمسين عرفت طريقي، محمود الربيعي، ٨٥- ١٢٣.

الإنجليزية وليس أكثر من ذلك، وقد أشار الربيعي إلى هذا الاكتشاف المتأخر حين جاء موعد مناقشة أطروحته، وكان من ضمن لجنة المناقشة الأستاذ سارجنت الذي بدا بارداً وغريباً تماماً للربيعي. وقد يقول قائل بأن حيادية اللجنة تفرض على أعضائها التزام الحياد في مثل هذا الظرف، ولكني قرأت سابقاً عند محمد عناني وجلال أمين وغيرهم ملاحظات مشابهة تماماً عن شخصيات أكاديمية محبوبة تعلق بها الطلاب المصريون؛ نظراً لتواضع تلك الشخصيات وجديتها في الوقت نفسه، إلا أنهم صدموا بعد ذلك بردود الفعل الباردة من قِبل من عدّوهم أصدقاء ومثقفين مميزين.[١] ولعلي أُضيف لهذا اعتقادي بدور البرود الإنجليزي الشهير لدى معشر الإنجليز، واسترابتهم من الآخرين، ممن يخالف ثقافتهم على حد قول عناني.

وفي بعض الأحيان يكون التعلق والتأثر بالنماذج الإنسانية التي أثرت في تكوين الأديب، وفكره، وقد ذكر عبد الوهاب مطاوع أنه تأثر كثيراً بالأديب الفرنسي **فولتير**[٢]، وكان حريصاً على رؤية مجسمة عندما زار متحف الشمع بلندن، محدثاً نفسه بذهول:"يا إلهي إنني أقف

---

(١) انظر: واحات الغربة / الفصل الثالث.

(٢) فولتير: فرانسوا ماري أورويه المعروف بفولتير(١٦٩٤-١٧٧٨). كاتب وشاعر فرنسي ، أثرت آرائه على مثقفي عصره في وطنه فرسنا وخارجها. اُشتهر بكتاباته الساخرة وبرع في فن المجادلة والمناظرة وانتقد الطبقات المستبدة في المجتمع من طبقة رجال الدين وطبقة النبلاء ونحوهم. ونادى بحقوق الإنسان ، وحق المتهم في الحصول على محاكمة عادلة وحق الإنسان في معتقده الديني.
انظر: الموسوعة الحرة ويكيبيديا.

أمام فولتير، فأحس كأنه على وشك أن يردّ علـــى تحيتـــي ويمـــد يـــده لمصافحتي.. إنه ضئيل الجسم، طويل الأنف، مجدور البشـــرة، عينـــاه زرقاوان، لكن عظام وجهه وذقنه تشي بقوة الشخصية، هـــذه إذن هـــي الرأس التي أبدعت روائع الأدب الفرنسي والتراجم التاريخية والرسائل والكتابات الفلسفية والاجتماعية الجريئة، وصبّت نـــار الغضـــب علـــى التعصب الديني وشرور الظلم الاجتماعي" [١].

وشعبية فولتير العالمية جاءت من أعماله العظيمة، التـــي تركـــت بصمات واضحة على الأدب والفكر الإنساني.

(١) يوميات طالب بعثة، ٨٥.